الورقة الأولى

دوامة الحروب مستمرة رغم تداعياتها المدمرة

لماذا وكيف؟

د. خالد عبيدات*

مقدمة

ليس فتحاً جديداً في آفاق المعرفة تأكيد أن الدولة في جميع مراحل التاريخ وفي الحاضر، وربما في المستقبل أيضاً، كانت وما زالت وستبقى تضع في رأس اهتماماتها تكوين جيش قوي قادرٍ على درء المخاطر الخارجية، وفي الوقت نفسه يساعد على تنفيذ مآرب الدولة على الصعيد الخارجي، والصعيد الداخلي، ولذلك فإن الدولة- إلى حدٍّ ما- يمكن اختصارها بأنها هي الجيش المسلح بجميع أنواع الأسلحة التي يمكن أن تطالها يد القيادة وتحصلُ عليها، فهيبة للدولة من هيبة جيشها، ولا داعي لإنكار قوة الدولة في المجالات الأخرى السياسية والاقتصادية والمالية، فهي مجالات تزيد من حاجة الدولة إلى تعزيز جيشها.

إن هذا الميل من الدولة إلى بناءِ جيشها لا يعني أبداً وجود نزعةً عدوانية، كما لا يعني أبداً استعلاءً على الغير، إنما يعني ضرورة فرضها التاريخ على مدى العصور، حتى إن دولة مثل سويسرا المبنية على الحياد التام بكل أبعاده لها جيشها القوي.

لذلك أصبح من البدهي أن كل دولة تسهر على بناء جيشها، وكأن الحرب قادمة غداً، وتسهر على بناء السلام وكأنه يُعمِّر أبداً، تماماً كما يعمل الإنسان الأكثر وعياً ومعرفة حسب نصيحة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونصها: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ودول منطقة الشرق الأوسط ليست استثناءً، بل هي تجسيد لنظرية إعطاء الأولوية لبناءٍ القوة العسكرية فالتسابق على التسلح واقتناء السلاح بَدَّ مناطق العالم الأخرى، وأصبحت الموازنة العسكرية فيها تكاد تبتلع موازنة الدولة كلها، وقد بلغ الصرف فيها على الشؤون العسكرية أرقاماً فكلية، الأمر الذي كان له الأثر الفعال في ازدهار تجارة السلاح في العالم؛ إذ

* أستاذ علوم سياسية وباحث سياسي ودبلوماسي سابق- الأردن

تسلطت الأنظار الخبيثة على الشرق الأوسط منهمكة في التخطيط لكيفية ابتلاع أموال المنطقة وفوائدها، ويبدو أن المال في منطقتنا جاء من أجل شراء السلاح وليس من أجل إنتاجه، والسلاح جاء إلى المنطقة من أجل ابتلاع أموالها، لقد استشاط أحد مفكرينا غضباً من هذا الوضع، فاقترح على المتربعين على صناديق المال حلاً للقضايا الوطنية، بطرحها في عطاءات دولية على أن يتم تلزيمها لصاحب أعلى الأسعار!

هناك سباقٌ جنوني على التسلح، وتخصيص ميزانيات له، الأمر الذي وضع المنطقة على كف العفريت، أو على حافة الهاوية، ولا يدري المرء في أي يوم سيصحو على اندلاع نيران الدمار.

أهمية منطقة الشرق الأوسط

لشدة اهتمام القدرات العالمية وعقولها المدبرة بمنطقة الشرق الأوسط، فهي دائمة الانشغال بتحديد المنطقة من أجل حصر موجوداتها الحضارية والاقتصادية والمالية والبشرية، وفي كل مرة يظنون أنهم أشبعوا نهمهم بالدراسة والتحليل يكتشفون أن المنطقة قادرة على التجديد والتطوير، وفي كل مرة يتم إحكام السيطرة الخارجية على المنطقة؛ سرعان ما تظهر قوى جديدة في المنطقة تقلبُ معادلات موازين القوى رأساً على عقب.

إذا كان اهتمام القوى العالمية بمنطقة الشرق الأوسط قد بدأ بدايات منطقية واقعية، لكونها مهد الديانات السماوية التوحيدية الثلاث، وبالتالي لكونها مركز الإشعاع الروحي والحضاري لجميع بني البشر، فإن موقعها الاستراتيجي الذي هو بالفعل القلب والعقل الحقيقي للإنسانية قد جذب كل قوةٍ طامعةٍ للسيطرة على العالم، فإن مَنْ يتمكن من السيطرة على منطقة الشرق الأوسط، يمكنه السيطرة على العالم.

وعندما تمكنت المنطقة من استلام زمام أمورها بنفسها، حينما حملت لواء الإسلام، كادت هي نفسها أن تسيطر على العالم، فأصبحت كياناً سياسياً حضارياً عالمياً.

إن آثار وجذب التأييد والإعجاب من الحريصين على مصير الإنسانية في مسيرتها نحو الازدهار وحتى نحو السعادة، حرَّك ضدها «الإبليسية» النائمة في النفوس الحاسدة والشريرة التي تحالفت تلقائياً مع النزعة السلطوية الكامنة في النفس البشرية الخاوية والمتعطشة إلى الهيمنة.

إن نزعة السيطرة على منطقة الشرق الأوسط أصبحت تراثاً بشرياً، وكأن الكون كله مُجَسَّدٌ فيها، وهكذا أصبح التاريخ في أهم صفحاته إما سيطرة الشرق الأوسط خارج حدوده، وإما تمكن الشرق الأوسط من سيادته داخل حدوده، وإما السيطرة عليه من قبل قوى العصر الخارجية البازغة.

وفي زمننا الحاضر تأخذ أهمية الشرق الأوسط في نظر قوى العالم وجوهاً متعددة، ففيها الطاقة اللازمة لتحريك عجلة العالم، وفيها إسرائيل طفل العالم المدلل، وفيها توجهات جارفة لتقرير مصيرها بيدها، بل وأهم ما فيها هذه الأيام حسب اعتقاد سادة العالم «الإرهاب»، وهناك حرب عالمية على «الإرهاب».

ولذلك فعن أي حرب تتحدث هذه الندوة العلمية اليوم، ما دام أن المنطقة مُتَهَّمة بـ«الإرهاب» في عقيدتها الإسلامية، وفي حقها، في مقاومتها الوطنية؟

الدول الفاعلة في الشرق الأوسط

من دون الدخول في تفاصيل دقيقة لتحديد منطقة الشرق الأوسط، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فإن الأمر يعتمد على جنسية ذلك المحدد الاستراتيجي، وعلى نواياه الدفينة.

وتبعاً للتطورات المعاصرة، أصبحت المنطقة تعني أوسع بكثير من المعاني الجغرافية، والدليل على ذلك هذا الاهتمام العالمي بكل ما يجري فيها، فكل دولة على سطح الكرة الأرضية تقريباً أرسلت وحداتها العسكرية لتنال «الشرف» في المشاركة في حرب الخليج، ثم لتتسابق في حصد المغانم في الحرب على أفغانستان، وعلى العراق، ومساهمة أي منها بطريقةٍ أو بأخرى في الحرب التي تم شنها على لبنان في عام ٢٠٠٦ وعلى غزة في عام ٢٠٠٨.

أما بالنسبة للتهديدات بإشعال حرب هذه الأيام على إيران أو على لبنان أو على سوريا أو عليها جميعاً، ودفعة واحدة، فإن إسرائيل يمكن تصنيفها بأنها «واجهة» الدول الفاعلة في المنطقة فيما يتعلق بالحرب وفيما يتعلق بالسلام.

ولا بد إذن من وضع تلك المقولة جانباً وهي: «لا حرب دون مصر، ولا سلام دون سوريا»، إنها مقولة أقرب إلى الشعر المنثور، وأبعد ما تكون عن العمق الاستراتيجي، مع عدم الإنكار الكلي لدغدغات المنثور من الشعر.

إن منطقة الشرق الأوسط أصبحت كعادتها، بل ما تزال تؤكد طبيعة تكوينها بأنها

منطقة عالمية بامتياز، تتأثر جداً بالدول الفاعلة، ولا تؤثر فيها إلا بدرجة قليلة جداً فكل دولة فاعلة على الصعيد الدولي لها فاعلية خطيرة جداً في الشرق الأوسط، مع الأخذ بالحسبان مدى التفاوت في هذه الفاعلية، ولا تتوقف عند العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي، ولا عند العضوية المؤقتة، وكل دولة تتلمس جسد « دويلتها»، تطمح أن يكون لها فعل فيما يجري في المنطقة، أو قول على الأقل.

ومن المفضل والموضوعية في رسم خارطة الدول الفاعلة، البدء من المنطقة نفسها والبدء من السلطة الفلسطينية؛ إذ مهما تم وصمها بالصفات السلبية أو الإيجابية، فهي تأتي في طليعة الفاعلين سواء قالت نعم أو قالت لا، وليس إذا «فَعَلَتْ»! فهي تملك أن تقول، ولا تملك أن تفعل، ولكن مجرد نطقها يمنحها فاعلية كبيرة.

وبالمقابل تقف إسرائيل، التي لا تكترث كثيراً بقول نعم أو لا؛ إذ إنها مستعدة للمراوغة بنعم أو لا إلى آخر المطاف، وهي منهمكة وبصلف على العمل على التغيير المادي على الأرض، فلها القدرة والتصميم، ولا تكترث لرأي مهما كان مقدار فضله عليها، ومن هنا تبدو فاعلية إسرائيل التي يمكن وصفها بأنها «خارقة».

أما الولايات المتحدة الأمريكية فهي دولة شرق أوسطية بامتياز، وهذا الامتياز يبدأ بتطلع ذلك النصيب المعتبر من شعوب المنطقة إلى «الأمركة»، طموحاً وتعلماً وثقافة، بل وجنسيةً، يشهد على ذلك الطوابير الطويلة جداً التي تصطف منذ الصباح الباكر أمام السفارة الأمريكية لتطرح عليها التحية الصباحية، وهناك الملايين التي تتقن إلقاء التحية بالبريد الإلكتروني، أما الوجود «النفوذي» الأمريكي فلا يقتصر فقط على تلك الجيوش التي تكاد تغطي عين الشمس الموجودة في الجو، وفي البر، وفي البحر، وفي النفوس وفي العقول، ولا يمكن إنكار تلك المقاومة المحلية لهذا الوجود الأمريكي، التي أسالت دم الأنف الأمريكي، ولم تتوقف عند إهانة بوش بحذاء منتظر الزيدي الذي ذهب مثلاً، وفي المحصلة تبقى أمريكا الأكثر فاعلية في الشرق الأوسط، بل وتتكرم بإلقاء بعض الفاعلية على الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا، وبإلقاء بعض الالتزامات على ألمانيا أو اليابان، وبفتح بعض النوافذ في وجه الصين أو الهند أو البرازيل أو فرنسا أو إنجلترا.

أما إيران، فلها فاعلة من طراز «إرغامي عقدي زئبقي»، فهي حليف لأمريكا في

احتلال أفغانستان، وشريك لها في احتلال العراق، وفي حكمه أيضاً، وتثير حسد مجموعة الدول الست وحذرها، وتجعل إسرائيل ترتعد رعباً في كل ما يتعلق بالطاقة النووية السلمية أو العسكرية.

وحين الانتقال بتفاصيل الفاعلية إلى تركيا، فإن دخولها على خط الفاعليات قد أخذ شكل «الصحوة» في اللحظة الأخيرة وقبل فوات الأوان، وتَلَمَّستْ تركيا في هذه الصحوة تاريخها البعيد، وإن كان واقعها المعاصر يمتطي قطار النمو والتغيير، ويحاول عقلها رسم مواقع الفائدة في التوجهات.

ويبدو أن الأمر تَعَدَّى إهانة السفير أو تبادل مغلفات مع إيران والبرازيل حول استبدال كيلوغرامات إيرانية من اليورانيوم المخصب قليلاً، بكيلوغرامات أقل عدداً، مخصبة بدرجة أكثر على الأراضي التركية، ولم تعترف مجموعة الدول الست بأهمية عملية التبادل هذه.

واقتصار الفاعلية على الدول فقط ليس من العدل، حتى وليس دلالة على الوعي، ولا على قراءة صحيحة للواقع، فإن حزب الله في جنوب لبنان مع مريديه أينما كانوا يمتلك بجدارة ثقلاً هائلاً في الفاعلية يحسب لها ألف حساب من جميع الجهات الفاعلة الأخرى، والأكثر فاعلية منه؛ إن معظم الحركات والتحركات والتهديدات تدور في فَلَك وفي آفاق حزب الله، سواء عن قدرته الذاتية، أو قدرته المستمدة بما بين يديه من تقانة عالية، وبما يتدفق عليه من عون بإعجاب وبإيمان، وفاعلية حماس في غزة والمريدين لها في الخارج تقع في نفس إطار فاعلية حركة حماس.

وهناك إضافة إلى كل ما سبق من فاعلياتٍ، «الفاعلية العاقلة والمعقولة»، التي بيدها كثير من المنطق، وكثير من العقلانية والإحساس العميق بالمسؤولية، وكثير من الألم من ضيق ذات اليد مالياً لقسم منها، ونفوذاً ومكانة على الساحة للقسم الآخر، ولكن أياً منها لم يعرف الكلل ولا الملل في بذل المساعي، ويأتي في المقدمة الأردن ومصر والسعودية.

وبدأ يلوح في الأفق تكوين فاعلية تحالفية بين سوريا والعراق وإيران، وربما مصر، والوقوف عند هذا النوع من الفاعلية التحالفية تصديقاً أو اهتماماً أو تحليلاً يطلعنا على أن لا جاذبية فيه.

لكن يجب الوقوف عند أملٍ كبيرٍ وعظيمٍ فيه كل الجاذبية، أقصد بذلك كيفية التوفيق

بين جميع هذه الفاعليات للوصول إلى قاسم مشترك، فقد ارتفعت صيحات حول تكوين منظمة إقليمية، أو إقليمية موسعة، تضم في عضويتها هذه الفاعليات، وها هو مؤتمر القمة العربية في سرت أوكل إلى أمانة جامعة الدول العربية البحث والتباحث مع دول الأطراف.

النوايا الحسنة والثقة والقدرة

تكاد النوايا في الشرق الأوسط تكون في غاية الوضوح؛ إذ إنَّ النوايا الإسرائيلية لا تخفى على أحد، سواء من أهل المنطقة أو من خارجها؛ فأهل المنطقة يعبِّرون علانية عن معرفتهم بالنوايا الإسرائيلية التي لا تريد الخير لأحد غيرها، بينما الدول من خارج المنطقة تتعاطف معظمها مع إسرائيل وتساندها، وتتغابى عن معرفتها بحقيقة النوايا الإسرائيلية، بل نجد رئيساً مثل ساركوزي يصرح بأعلى صوته وهو يشارك إسرائيل احتفالاتها بعيد ميلادها الحادي والستين: «إن قيام إسرائيل هو أعظم إنجازٍ حققته البشرية في القرن العشرين»، أما عن برقية التهنئة التي بعثها أوباما مهنئاً نتيناهو بعيد ميلاد إسرائيل الثاني والستين، فقد خرق جميع الأعراف الدبلوماسية بالمديح الهائل، وخرق حقائق التاريخ من أجل دعم إسرائيل في ادعاءاتها الأساطيرية.

ولذلك فإن «النوايا الحسنة» في المنطقة، وخاصة فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي تكاد تكون معدومة، إلا في الاعتدال من الجانب العربي، الذي يتكلم ويتصرف في سبيل الوصول إلى حل النزاع، وفي سبيل تجنب أي صدام أو معركة أو حرب، من منطلق العدالة والمنطق وبنوايا حسنة.

فالنوايا الحسنة إذا توافرت هي التي تؤدي إلى السلاح، وهي بالأساس التي تحول دون اشتعال الصدام الذي يؤدي إلى الحرب الشاملة، ولا يفيد توفر النوايا الحسنة في الجانب الفلسطيني أو العربي الذي أفصح عن نواياه الحسنة في المبادرة العربية للسلام، التي أطلقها القادة العرب في قمتهم التي انعقدت في بيروت عام ٢٠٠٢، ثم دأبوا على تكرارها وتأكيدها في جميع القمم السنوية الدورية، وكان آخر تأكيد على التزام العرب بها ما جاء في قرارات قمة «سرت» في نهاية آذار/ مارس الماضي، وبالمقابل لم تقم إسرائيل بأي بادرة تظهر فيها قطرة من النوايا الحسنة، رغم الضغوطات عليها، ولا بإزالة ذرَّة تراب من حواجز العزل التي تقطع أوصال الضفة الغربية، وتزيد من معاناة الشعب الفلسطيني وعذاباته.

وما دامت النوايا الحسنة غير متوافرة في الجانب الإسرائيلي، وربما لدى كثير من القوى التي تدعمها، فإن الثقة ستكون مفقودة بشكل عام في أجواء الشرق الأوسط، فهي مفقودة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، ومعدومة بين إسرائيل وحماس، وتكاد تكون مستحيلة بين حماس والسلطة، ولا يمكن الحديث فيها بين إسرائيل وإيران، وقد تبخرت في لحظة البرق بين تركيا وإسرائيل، وهي غير واردة بين الولايات المتحدة وكل من إيران أو سوريا أو حزب الله.

فما فائدة هذه الثقة إذا وجدت بين كل من تركيا والبرازيل من جهة، بصفتهما عضوين مؤقتين في مجلس الأمن، ومن جهة أخرى مع إيران، إذا كان اتفاق تخصيب اليورانيوم الإيراني على الأرض التركية لم يلق قيراط ثقةٍ من أحدٍ؟ لقد سقطت جهود لزرع الثقة في المنطقة، ويبدو أنه لا أحد يثق بالآخر! فماذا إذن سيتوقع المراقب الذي يتابع ساعة الصفر لقيام الحرب؟!

إن فقدان الثقة لا يعني من قريب أو بعيد فقدان القدرة على شنِّ الحرب أو على تجنبها، فكل طرف من أطراف عميلة السلام أو عملية الحرب تتوافر عنده القدرة لإشعال الحرب، كما تتوافر له القدرة لتخريب عملية سلام، أو أي جهود يمكن أن تتسم بالخير أو بالمساعي الحميدة، مثل مساعي «كارتر» أو «نيلسون مانديلا» أو القس «توتو»، وفي المقابل فإن الطلاسم السياسية في الشرق الأوسط أعطت القدرة لأضعف طرف في النزاع للقول الفعال في عملية السلام، من أجل عرقلتها ونسفها، وإن لم تعطه القدرة على كسب الحرب إذا اشتعلت.

ويبدو أن لا أحد من الأطراف مهما بلغت قدرته قادر على حسم الحرب القادمة، فعدم القدرة على الحسم تجعل الأكثر قدرة كافرا بقدرته، وتجعل الأضعف قدرة متباهيا بضعفه، وهذه المعادلة بين الأقدر والأضعف تطيح بنظرية توازن القوى عن عرشها السياسي الذي حكم أوروبا في التاريخ الحديث، وتجعلها من دون أي معنى في الصراع الجوهري في الشرق الأوسط.

إن هذا الوضع المعقد سياسياً وعسكرياً ومفاهيمياً، لن يفضي إلا إلى مزيد من التمترس، فأصبحت «المَتْرَسة» أحدث «عقيدة»- وليس بمعنى العقيدة الدينية- لجميع الأطراف الفاعلة في الشرق الأوسط؛ فإسرائيل تتمرس في بناء المستوطنات وابتلاع الأرض، والسلطة تتمترس بمبادئ القانون الدولي، والدول العربية تتمترس خلف المبادرة العربية

للسلام، وإيران تتمترس خلف تخصيب اليورانيوم، وتركيا تبني متاريس جديدة، والولايات المتحدة تتمترس خلف إيمانها المطلق بأمن إسرائيل.

ومن هنا، فإن النوايا الحسنة غير متوافرة، والثقة معدومة، والقدرة لها مفعولها وفاعليتها مهما كان وزنها عند العملاق، وعند الأقل عملقة، الأمر الذي يفضي بالنتيجة إلى وضع قابل جداً للاشتعال، بل وربما ينتظر من يعلق الجرس، أي من يشِعل عود الكبريت.

أنماط الحروب التي شهدتها المنطقة ونتائجها

أحدث الحروب التي عرفتها المنطقة حتى اليوم، هي الحرب على «الإرهاب»؛ إذ لم تبدأ هذه الحرب إثر أحداث ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن، لقد بدأت قبل ذلك بعقدين، ولكنها اشتعلت لتشمل العالم كله، وتحديداً منطقة الشرق الأوسط التي تحولت إلى كونها متهمة بأنها مصدر لتفريخ «الإرهاب»، بسبب دينها الإسلامي، فالإسلام والمسلمون متهمون به، فوجبت إذن مطاردتهما بموجب القوانين الدولية التي شرعها مجلس الأمن الدولي.

وكالعادة استغلت إسرائيل هذا التحول الدولي أبشع استغلال، أو أن التحول الدولي نفسه استغل إسرائيل، وسخرها للحرب على «الإرهاب»، والطرفان لهما فائدة مشتركة؛ إذ إن الحرب على «الإرهاب» اعتبرت المقاومة الوطنية «إرهاباً»، وبما أن الحرب على «الإرهاب» لم تنتهِ، فإن التصويب على المقاومة الوطنية سيستمر.

لذلك يمكن القناعة وبسهولة وبسرعة أن المنطقة برمتها في حرب دائمة مشتعلة ضد «الإرهاب»، وعلى هذا الأساس، وما دام أن الحرب دائمة الاشتعال على «الإرهاب»، فالحرب التي يحتمل أن تشتعل في المنطقة هي حرب أخرى إضافة إلى الحرب القائمة على «الإرهاب»، وفي هذه الحالة فإن الحرب في المنطقة حين اشتعالها ستصبح حرباً «مركَّبة»، أي حرباً فوق حرب، وتضاف إليهما حروب أخرى.

والمنطقة مشهورة بكثرة الحروب فيها؛ إذ لا تشتعل فيها حرب إلا وفيها الوقود الكافي لإشعال حرب أخرى، إنما تختلف عنها نمطاً من حيث الأهداف، ومن حيث الإمكانات، ومن حيث الأضرار، والأهم من كل ذلك من حيث ارتفاع حدة العداوة وحدة الأحقاد.

كانت حرب عام ١٩٤٨ من أجل طرد الفلسطينيين من ديارهم، وإقامة دولة إسرائيل عليها، وقد نجحت الحرب في تحقيق ذلك نجاحاً باهراً.

وكانت حرب عام ١٩٥٦ من أجل لجم قوة مصر الصاعدة والسيطرة على إمكانية بزوغ أي قوة صاعدة في دول الجوار الإسرائيلية، ونجحت في ذلك أيضاً نجاحاً باهراً.

ونجحت حرب عام ١٩٦٧ نجاحاً هائلاً في السيطرة على باقي الأراضي الفلسطينية والجولان وجزء من جنوب لبنان وعلى سيناء بكاملها، وحققت نجاحاً هائلاً.والأهم من جميع تلك النجاحات كلها أنها تمكنت من النفاذ إلى صلب العقل العربي في الوحدة العربية، الذي انزاح كثيراً عن التفكير فيها.

أما حرب عام ١٩٧٣، فإنها ازدادت في نجاحاتها من حيث إغراق العقل العربي في قضايا بعيدة عن القضية الجوهرية، وهي القضية الفلسطينية، بالإضافة إلى تطويعه في كل ما يهم قوى النفوذ الغربية في النفط العربي.

ولا يمكن إغفال تلك الدراسات التي ظهرت حديثاً كاشفة عن رائحة النفط في تلك الحرب، ثم غرق العرب بعد تلك الحرب في موضوع التسويات والمساومات والانصياعات في جميع قضاياهم، وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

وتحول العرب بعد تلك الحرب بالريموت كونترول إلى حرب ضد إيران في منتصف الثمانينات من القرن الماضي، أودت فيما بعد إلى أن قام العراق بغزو الخليج، الأمر الذي كان جاذباً لتحالف دولي واسع أودى بطرد صدام حسين من الكويت، وملاحقته وتركه حيا، ولكن محاصراً، هو وشعب العراق الذي عاني الأمرَّين، إلى أن قامت حرب كونية ضد أفغانستان فغيرت من سحنتها، تلتها حرب ضد العراق أشعلت فيها النيران منذ عام ٢٠٠٣ ولم تخمد نيرانها الأهلية حتى اليوم، وبعد ذلك تم شن حرب على لبنان عام ٢٠٠٦ كانت إسرائيل فيها كالعادة رأس الرمح، من أجل إلغاء الخرائط التي حكمت المنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بموجب رسومات سايكس وبيكو السيريالية.

لم تنجح أمريكا ورأس رمحها إسرائيل في تغيير خارطة المنطقة «الديمقراطية»، ولا الجغرافية، لأن رأس الرمح قد انكسر لأول مرة، فقد سقطت في الوحل هالة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، وتمرغت هيبته في الوحل أكثر في تلك الحرب التي شنتها إسرائيل على غزة في نهاية عام ٢٠٠٨ وبداية عام ٢٠٠٩.

والملاحظ أن جميع تلك الحروب لم يكن الطرف العربي هو البادئ في إشعال أي حرب

منها، بل كانت كلها تفرض عليه فرضاً، أويتم توريطه فيها، ولم يكن الطرف العربي في أي حال من الأحوال على استعداد مسبق للتعامل مع أي حرب من تلك الحروب.

والملاحظ أيضاً في آخر حربين، وهما الحرب على لبنان والحرب على غزة، أن المقاومة في لبنان وفي غزة قد أبهرت جميع المراقبين بصلابتها وبقدرتها وبتضحياتها، الأمر الذي من شأنه أن أحدث تحولاً هائلاً في عقلية صانعي الحروب في المنطقة، من أجل الاستمرار في تمكنهم من قدر المنطقة، في جوٍ عام لم تعد فيه الحرب نزهة لمشعلها كما كان عليه الحال في الحقب السابقة.

والدلالات كثيرة على استخدام الأسلحة غير التقليدية، لأن إسرائيل بدأت تذوق الويلات التي لم يألفها الإسرائيليون؛ إذ لم تكن إسرائيل ترتعد أو ترتقب سابقاً كما هو حالها اليوم، ويشهد على ذلك تلك المناورة الإسرائيلية التي شارك الشعب فيها، التي بدأت يوم الأربعاء ٢٣/ ٥/ ٢٠١٠، ولم يكن حزب الله على استعداد لضرب إسرائيل وفي العمق كما هو اليوم بدعمٍ على رؤوس الأشهاد من إيران ومن سوريا، ولم تكن أمريكا على قناعة كما هي عليه اليوم من سوء نوايا إيران المبيَّتة ضد إسرائيل، وفي إنتاج سلاح نووي؛ كل ذلك، في الوقت الذي يعجز فيه نظام الحكم القائم في العراق من تشكيل حكومة بالمقاييس الديمقراطية المستوردة المفروضة، بينما «الإرهاب» يحصد يومياً المئات من الضحايا البريئة، وأضعافها من الجرحى والمعوقين.

أما غزة فيزداد خناق الحصار عليها، إلا من مركب صغير بالكاد يصل إليها وفيه بعض المعونات الإنسانية بعد أن تفتشها إسرائيل، ومن الجهة الأخرى تزداد الأحقاد بين حماس والسلطة في رام الله، التي تتمنى لو أن القدر لم يكن قاسياً عليها لهذه الدرجة التي أدخلها في مفاوضات غير مباشرة مع إسرائيل، هي أقرب إلى الكآبة وإغلاق نافذة من نوافذ الأمل.

والنتيجة من كل ذلك هي الغليان المتصاعد في نفوس الجميع من دون استثناء، وأكثر الأطراف تنام وتصحو، والإصبع على الزناد!!.

الحرب في المنطقة بين الضرورة والكارثة

منذ الحرب العالمية الثانية، دخلت الحرب بكل قوة إلى عقول وثقافة من لديه رأي أو سلطة في اتخاذ القرار، على الصعيدين الرسمي والشعبي، في معظم الرقعة الجغرافية في منطقة

الشرق الأوسط وخارجه، في كل شأن يتعلق بالقضية الفلسطينية، ويزداد هذا الدخول هجوماً لأن القضية الفلسطينية هي جوهر قضايا المنطقة.

إذا كانت القضية الفلسطينية قد بدأت باتفاقية سايكس بيكو، ثم بوعد بلفور، ثم بصك الانتداب البريطاني، وصولاً إلى قرار الجمعية العامة بالتقسيم رقم (١٨١) لعام ١٩٤٧، فإن جميع هذه المراحل قد تحققت باستخدام القتال المباشر، ولم ينتهِ ذلك القتال بقيام إسرائيل، لأن ذلك كان خطوة في مسلسل لا نهاية له من الخطوات، فقيام إسرائيل وإبقاؤها على قيد الحياة يتطلب باستمرار حرباً لكسر إرادة الفلسطينيين، وإرادة الأشقاء العرب، بالإضافة إلى كسر إرادة الضمير الإنساني الحر المتعاطف مع الحق والرافض للظلم.

إن تاريخ البشرية عموماً وهي تصعد سلم الازدهار والارتقاء لم يكن كله سلاماً ورخاءً، بل إن الحروب قد صبغته بسلبياتها وبإيجابياتها أو بعدالتها أو بعدوانيتها، لذلك فلا يمكن إطلاقاً إلا التأكيد على الدور الهائل والفعال لدور الحروب في صنع حضارة الإنسان، وفي منطقة الشرق الأوسط الشواهد الأكثر وضوحاً، ولكن ذلك لا يعني أبداً الوقوف فقط عند ذلك الدور الفعال للحروب، ولا يعني إسباغ الشرعية عليه واعتباره الطريق الوحيد أو الحل الوحيد، علماً بأن هناك حرباً شرعية، وأخرى غير شرعية، وهناك ما هي مشروعة وأخرى غير مشروعة، فكل حرب في نظر من يقوم بها، وخاصة إذا كانت نتيجتها النصر المبين هي شرعية ومشروعة، بل وترتفع في التقدير إلى درجة القدسية، حتى في الأديان السماوية وفي طليعتها الإسلام هناك دار السلام وهناك دار الحرب؛ إذ لولا الحرب ما عرف السلام، وبالمقابل لولا السلام ما عرفت الحرب؛ أي أن الجنوح إلى السلام والحرب أمر بدهي، فكل أمةٍ تمجد أبطالها الذين قضوا دفاعاً عنها وعن الوطن في الحروب التي خاضتها الأمة باختيارها أو رغماً عنها.

والاستشهاد عند المسلم هو الطريق إلى الجنة، وكذلك في الديانات الأخرى، أما عند غير المتدينين فهو الطريق إلى المجد وإلى الخلود!! فكل دولة في الشرق الأوسط تضع في مقدمة أولياتها بناء قوات مسلحة قادرة وعلى أهبة الاستعداد، وميزانية القوات المسلحة تكاد تبتلع الجزء الأكبر من الموازنة العامة، وهذا لا يعني إلا الاستعداد ليوم الوغى؛ أي الاستعداد لخوض الحرب هجوماً أو دفاعاً.

والعلاقة بين الحرب والعدالة علاقة عكسية، فكلما تحققت العدالة تغيب فرص الحرب، وكلما غابت العدالة تزداد احتمالات الحرب.

وفي منطقتنا انقلب المنطق وخوت العدالة من مضامينها، منذ أن وطئت الصهيونية وداعموها أرض المنطقة؛ كل الحروب في المنطقة التي أشعلتها إسرائيل لا منطق فيها، وبالتالي لا عدالة فيها، فإسرائيل اختارت أن تعيش معزولة داخل قلعة محصنة، فهي تارة تُعلّي إلى السماء تلك الجدران، وتارة توسع وتمدد تلك الجدران لتشمل مساحات إضافية، بعد أن تتخلص من سكان العرب الشرعيين، وكل ذلك تمارسه إسرائيل باستخدام القوة التي تعتمد على العون الخارجي.

فإسرائيل قامت بفضل إنجازاتها الحربية، فيما تراجع الطرف العربي وخسر باستمرار، لقصور قدراته الحربية، الأمر الذي فرض الحرب فرضاً على العرب، وإن كان الذي يطفو على سطح العقل العربي الرسمي الآن هو أن السلام هو الخيار الاستراتيجي، في الوقت الذي تقوم فيه الحركة الدموية في بنية العقل الإسرائيلي على استراتيجية الحرب والقوة.

استراتيجيتان متناقضتان، ويستحيل أن تلتقيا على الرغم من مؤتمر أنابوليس، ومن خارطة الطريق، ومن اللجنة الرباعية، ومن المساعي الدولية، وفي مقدمتها المساعي الأمريكية «الأوبامية»، والصيحات تزداد ارتفاعاً بضرورة أن يتخلى الموقف العربي عن استراتيجية خيار السلام، وعن المبادرة العربية للسلام.

جميع الحروب السابقة لم تحقق أبداً ولو خطوة واحدة نحو السلام، بل إن كل حرب كانت نتيجتها تؤكد ضرورة الاستعداد بشكل أدق وأقوى للحرب التالية، أي أن الحرب أصبحت ليست فقط متوقفة بل هي «ضرورة» حتمية.

وتكمن الكارثة في أن الحرب أصبحت بالفعل ضرورة لا بد منها، بغض النظر عن الكوارث التي ستلحق بأطراف الصراع.

أوصاف الحرب القادمة

بما أن أجواء عدم الثقة هي المهيمنة على جميع أطراف النزاع في الشرق الأوسط، فإنه من البدهي إذن أن يكون الأصبع على الزناد جاهزاً لإطلاق النار في اللحظة التي يراها مناسبة له، ومن الأفضل في هذه الحالة الأخذ بالحسبان- ولو كان نادراً- أن يضغط الأصبع

على الزناد، إما بطريق الخطأ وإما من شدة الأرق، وإما لأن الكيل قد طفح «حقداً» أو «وطنيةً»، كما لا يمكن إلا إعطاء نسبة من الاحتمال لشق عصا الطاعة على متخذ القرار بالحرب أو بالسلم من أجل المسارعة في إشعال الحرب، خاصة وأن «الأصولية الدينية» صار لها صولاتها وجولاتها لدى جميع الأطراف، إن كان داخل الجانب الإسرائيلي أو الفلسطيني أو الإيراني أو حزب الله، أو في أوساط المحافظين في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

لذلك فإن أوصاف الحرب التي إذا اشتعلت بسبب أن الفرصة لتحقيق الهدف أصبحت مواتية، ستختلف حتماً عن الحرب التي ستشتعل بسبب الخطأ أو الأرق، أو لأن الكيل قد طفح.

ولأول وهلة يبدو أن التفريق بين هاتين الحربين يبدو ميسوراً، ولكن حقائق التفريق ستختفي في اليوم التالي، حينما يكون الدمار ساحقاً، وحينما تسيل الدماء بشكل جارف.

وسواء اشتعلت الحرب لاسترداد حقوق متنازع عليها، أو لنشر عقيدة معينةٍ، أو للاستيلاء على مواد استراتيجية، أو للحيلولة دون إنتاج أسلحة دمار شامل، أو لعدم التمكين من استخدام أسلحة دمار شامل موجودة، أو من أجل فرض الهيمنة، أو بهدف القضاء على هيمنة قائمة، فإن مُشعل تلك الحرب لن يعدم القدرة على تسويغ ما قام به، سواء أمام شعبه أو اتجاه المجتمع الدولي، ولا عجب في حال كهذا أن ينقلب الأسود أبيضً أو أن ينقلب البياض سواداً.ومبدأ الحرب الوقائية مبدأ قائم، ويجد الآذان الصاغية، كما أن مبدأ الحرب الاستباقية قد أدخلته الولايات المتحدة، أو على وشك أن يكون في صميم القانون الدولي الجديد المطور.

وحين تشتعل الحرب هذه المرة ستكون الأكثر دماراً، ولن تقف عند حدٍ معين، ولن يصدر القرار من مجلس الأمن ما دام الفيتو في متناول اليد تمريراً للمصالح الأمريكية، وصوناً للمصالح الإسرائيلية، ولن تقف الدول الدائمة في مجلس الأمن كذلك الموقف حين شنَّ بوش حربه على العراق عام ٢٠٠٣، ما دام أن التوافق ضد طموحات إيران أصبح لا خلاف عليه، وما دام أن المحافظة على أمن إسرائيل وحمايتها أمراً لا يتوفر له الإجماع، حتى من معظم الأعضاء غير الدائمين في المجلس.

ليس هناك إطلاقاً من إشارات من الجانب العربي أو الإيراني بأنهما سيبدآن إشعال

الحرب.إن إسرائيل وبدعم من مجموعة (٥+١) هي التي ستبدأ الحرب ضد إيران أو ضد سوريا أو ضد لبنان أو ضد غزة أو ضد الضفة الغربية، وسيتم استخدام أحدث الأسلحة وأكثرها تطوراً من أجل كسر إرادة العدو، بأسرع من ومضات البرق.

ومع كل ذلك، فليس هناك ضمانة لتحقيق الهدف ما دام أن الطرف الآخر فيه تصميم على عدم الرضوخ، وفي هذه الحالة ستكون الحرب ورطة كبيرة لا يعرف من بدأها كيف سيخرج منها، ولن يعرف الطرف المتلقي للضربات رفع الرايات البيضاء، بل سيقاوم مقاومة يؤلم فيها المعتدي، وستذوق الأمهات الإسرائيليات والأمريكيات ومن معهما المرارة والألم كما ذاقتها الأمهات في المنطقة.

سيزداد اللجوء والنزوح، وسيزداد الطرد القسري من جميع الاتجاهات وإلى جميع الاتجاهات، الأمر الذي سيرغم الأطراف التي ارتأت عدم الدخول في الحرب على الدخول فيها، وسيتحول جزء كبير من السكان إلى ما يشبه الطعان التي تهيم على وجهها بحثاً عن النجاة، وستهتز «الهويات» في المنطقة بما فيها الهوية الإسرائيلية، ولن تمتلك قوةٌ مهما كانت، وأينما كانت احتواء نتائج هذه الحرب، وبالتالي لن يبقى أمامها إلا التعايش مع تلك النتائج؛ أي التعايش الاضطراري.

وسيكون «الإرهاب» أكبر المستفيدين من هذه الحرب، أكثر بكثير من الفوائد التي جناها نتيجة للحرب على أفغانستان، أو للحرب على العراق، أو على لبنان أو على غزة.وليس ابتعاداً عن الحقيقة الافتراض بأن «الإرهاب» الكامن في عقول وقلوب مشعلي الحرب هو الذي قادهم كالأنعام من أجل أن يشعلوا هذه الحرب، ما دام أن «الإرهاب» وحده سيحصد لصالحه معظم نتائج هذه الحرب.

التعايش مع نتائج الحرب

إذا كانت جميع القوى الفاعلة في المنطقة غير قادرة، أو بالأحرى غير راغبة في العمل دون نشوب الحرب لغرضٍ في نفس يعقوب لكل واحدة منها، فإنه من دون شك لكل دولة خططها التي ستسير عليها حين اشتعال النيران؛ فإسرائيل على سبيل المثال، تدَّعي بأنها ستغير نظام الحكم في سوريا بعد أن تعيده إلى العصور الحجرية، ولكن سوريا أقل حدة في الرد فتقول إنها ستذيق إسرائيل الكثير من الآلام.

أما إيران فتقول في حال ضربت إسرائيل المنشآت النووية السلمية في إيران: إن إسرائيل حينها ستواجه حتفها الكامل، بينما يؤكد حزب الله أن لديه القدرة لضرب إسرائيل في العمق وفي كل مكان، ولن يجد الجيش الإسرائيلي حين اعتدائه على جنوب لبنان مكاناً يعود إليه في فلسطين، كما لن يجد الإسرائيليون مكاناً يلجؤون إليه من حدة الضربات الصاروخية لحزب الله.

أما الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الدول الخمس فما زالت تصر على المزيد من العقوبات على إيران بقرار جديد يصدر من مجلس الأمن، غير مكترثة بتبادل إيران لليورانيوم على الأراضي التركية، ومع تكرار أمريكا رغبتها في الحل الدبلوماسي، فإنها لا تغلق الباب أبداً أمام الحل العسكري.

وعند نشوب الحرب فإن أي طرف فيها سيستخدم كل ما لديه من قوة ضاربة، ابتداءً من الأسلحة التقليدية وانتهاء بالأسلحة غير التقليدية، والثابت حتى اليوم أن الأطراف التي تمتلك السلاح غير التقليدي هي الولايات المتحدة، وقد صرح أوباما بأن بلاده لن تستعمل السلاح غير التقليدي إلا ضد الدول التي تحاول امتلاكه، وهذا يعني بصريح العبارة أن أمريكا ستستخدمه ضد إيران إذا لزم الأمر، ومن تحصيل الحاصل إن إسرائيل ستستخدمه إذن ضد إيران وغير إيران حينما يختلط الحابل بالنابل.

سبق وصرح الرئيس بوش الابن بأنه عند نشوب الحرب ضد إيران (وحلفاء إيران وهما سوريا وحزب الله)، فإن بلاده ستضرب بكل قوة ودقة وسرعة تفوق التصور، وأن أمريكا في هذه الحرب ستجمع بين الاستراتيجيات الخلاقة والتكنولوجيا المتقدمة، وتدّعي أمريكا وإسرائيل بأن قوة ضرباتهما لن تفسح المجال للمضروب بالقيام بردود فعل مؤثرة، بمعنى أن الحرب ستكون ساحقة ماحقة.

ولو تم تصنيف جميع هذه التصريحات المتبادلة بأنها تقع في إطار التأثير على النفوس، فإنه ما من شك في أن الحرب ستكون مدمرة أكثر من حرب سابقة شهدتها المنطقة، ولكن حرب من الحروب السابقة كانت بعيدة عن الحسم ولم تكن قادرة إلا على زرع بذور الحرب التالية.

ولا شيء يشير إلى أن الحرب القادمة ستكون حاسمة سياسياً، بالتوازي مع ذلك الكم

الهائل من الدمار الذي ستحدثه، ولا يمكن استثناء أمريكا من الدمار الذي ستذوقه، ليس فقط بالنسبة لجيوشها ومصالحها في المنطقة؛ بل إنها في سيطالها الدمار في عقر دارها أيضاً.

إن أي طرف من أطراف الحرب فيه من القدرة لأن ينهض حياً من تحت الدمار، لينطلق من جديد.

الحرب بشكلها الحالي إن كان فيها قوة الدمار المادي والجسدي، فإنها لا قدرة فيها على تدمير الإرادة، وإن الإرداة في الشرق الأوسط على الحياة، وعلى الانتصار على الظلم والعدوان لا يمكن أن تستكين أو تلين، وإن كانت قابلة للتعايش مع نتائج الحرب التدميرية، لأنها قادرة على الاستمرار في العطاء، إن «القدرة الكامنة» في الشرق الأوسط عصيَّة على العالم الجديد، وعلى كل ما ابتدعه من فنون للقضاء على الآخرين.

سيواجه أهل المنطقة العين بالعين والسن بالسن، وبعد ذلك سيضطرون للتعايش مع النتائج باستيعاب جحافل المهجرين، أو بإعادة بناء كل ما تهدم، بما في ذلك إعادة بناء أنظمة سياسية إذا طالها الهدم، وسيبقون طرفاً في الخارطة السياسية الجديدة إذا تم فرضها، وإن لم ينجحوا سابقاً في دحر خارطة سايكس بيكون، لكنهم نجحوا في النهاية في تلمس قوتهم من خلال تلك الخارطة، الأمر الذي دفع قوى الشر الخارجية إلى العمل لرسم خارطة جديدة على أنقاض خارطة سايكس بيكو، وسيبرز في المنطقة فكر سياسي جديد غير منقطع عن منابعه الأصيلة، وهي التعاليم الإلهية، وذلك سيشكل أعظم ما يستخلص من آثار الحرب القادمة.

وبالمقابل سيبدأ التغيير داخل الولايات المتحدة نفسها التي أصيبت بالإرهاق والتعب والملل، ليس فقط بسبب الصدمات التي ذاقتها من الحروب التي خاضتها في الشرق الأوسط بالنيابة، بل لأن هناك في الأفق البعيد تلوح مؤشرات إلى حتمية تغيير العقيدة الأمريكية نفسها، ويمكن في هذه النقطة بالذات التأمل بعمق بما أصاب المغول حينما كادوا يحرقون الشرق الأوسط بأكمله، ولكنهم في النهاية عادوا وقد تغيرت عقيدتهم؛ لقد اعتنقوا الإسلام.

الخلاصة والاستنتاج

إن الأهمية التي تتمتع بها منطقة الشرق الأوسط جعلت منها محط أنظار القوى العالمية، التي تسعى لنيل أكبر قدر من الأسهم فيها، فقد أسقطت هذه الأهمية أي نظرية سابقة تتحدث عن كيفية السيطرة على العالم، وأصبح أحدث النظريات أن من يسيطر على الشرق

الأوسط يسيطر على العالم، وما زال العالم في طريقه إلى الإقرار بأن القضية الفلسطينية هي جوهر قضايا المنطقة.

وبسبب كثرة القوى الخارجية الهارعة إلى المنطقة، وتعدد القوى البازغة فيها، وبسبب الوجود الإسرائيلي، فقد هجرت الثقة والنوايا الحسنة المنطقة وتركتها على حافة الهاوية، يؤرقها القلق المتصاعد المستمر والأرق من وضع السبابة على الزناد في كل الأوقات، وتتساوى في ذلك القوى الأكثر فاعلية مع القوى الأقل فاعلية، لقد أصبحت القوة لا تضمن الأمان لصاحبها وأصبح الضعف لا يؤدي بصاحبه إلى الهلاك.

فقد اعتادت المنطقة على الحروب غير المحسومة، ولم تنجح أي حرب إلا بزرع البذور السريعة النمو للحرب التالية، فالحرب غدت ضرورة من دون حسابات لكوارثها، والحرب القادمة التي يتراكض الجميع إلى ساعة الصفر فيها لن تلد إلا بذور حرب جديدة.

كما اعتادت المنطقة أيضاً على عدم بذل الجهود الخارقة من أجل احتواء الأسباب المؤدية إلى الحرب، فإنها بارعة في احتواء نتائج الحرب مهما كانت كوارثها عجيبة، فالمنطقة أشبه بإسفنجة كثيفة تمتص الإيجابيات والسلبيات معاً، وهذا هو سر أهميتها وسر استمرارها، فمنابعها الحضارية لا تنضب أبداً.

ولا ننسى أن الحرب مشتعلة على الدوام في المنطقة، ألا وهي الحرب على «الإرهاب»، الأمر الذي لا يثير الكثير من الخوف حين اشتعال حرب أخرى موازية.